من الحوارية إلى التناص إلى المتعاليات النصية
جينيالوجيا مفهوم التناص في الدراسات الغربية

د.أم السّعد حياة
جامعة الجزائر(الجزائر)

Résumé

Après la domination du texte clos dans les études littéraires, et après le tournant idéologique causé par l'empire formaliste, la théorie littéraire a changé de cap en greffant une formule de nature textuelle plus ouverte et plus dialectique.

On peut considérer Mikhaïl Bakhtine comme le premier chercheur qui a permit aux études textuelles de dépasser la catégorie d'immanence en exploitant la formule fertile : le dialogisme. Cette formule déclenche un nouveau paradigme dans les approches poststructuralistes.

Dans son livre Sémiotiké Julia Kristeva entreprit une idée plus scientifique (L'intertextualité) pour croiser les principes dialogiques élaborer par Bakhtine et les études poststructuralistes établies par le groupe Tel-Quel.

Dans la même logique on trouve que Gérard Genette évolue dans une sphère commune malgré que son fameux livre *Figures3* démontre avec clarté la pertinence des outils structurels dans le travail critique du texte. Sa nouvelle approche *Les transcendances textuelles* reflète le caractère intertextuel des nouvelles catégories dans la poétique narrative.

Cet article montre de façon chronologique l'évolution signifiante de ce paradigme dans les études textuelles.

تعرف الساحة النقدية العربية اشتغالا دؤوبا يسعى لسبر أغوار وتصيد مختلف ما تشهده الساحة الغربية من تنظيرات رائدة تعتني بدراسة مختلف أشكال الخطابات التي يستعملها الإنسان في ميادين حياته، خاصة منها النصوص الأدبية ذات البنى المعقدة، ومن بين المفاهيم التي أسالت حبرا كثيرا هناك وهنا واشتغل عليها العديد من المنظرين الغربيين نجد مصطلح التناص الذي حُمل بدلالات عديدة، وطوره كثيرون وفق سياقات مختلفة، وربما خرجوا عن معناه الأصيل في كثير من الأحيان.

اللافت للنظر أن الاشتغال على هذا المصطلح مازال متواصلا ولم ينضب له معين، وكأنه تجاوز كونه موضة تستهوي الباحثين مدة ثم يتركونها ليركبوا موجة نقدية جديدة، ولعل هذا السبب كان وراء سعينا للقيام بحفريات مفاهيمية نتتبع من خلالها مسارات هذا المصطلح في النقد الغربي لنكتشف السر وراء افتتان نقادنا ونقادهم على درجة سوية بهذا المصطلح ، إلا أن الاختلاف بيننا وبينهم كبير وواسع، لأن مشاكل الترجمة توقعنا دائما في مزالق فكرية ومفاهيمية عويصة تحيد بنا عن الاستعمال الصحيح لهذا المفهوم ولغيره من المفاهيم النقدية.

لهذا نتوخى في مداخلتنا هذه تحقيق غايتين أولها البحث في جينيالوجيا التناص لاكتشاف السر وراء اكتساب هذا المصطلح لكل هذه الأهمية، متوقفين عند ميخائيل باختين،الذي عد من بين أول من قدم تحديدا جامعا ومستفيضا له،مما جعل جوليا كرستيفا الباحثة البولغارية تكتشف عبقرية هذا الرجل فتنقله إلى النقد الفرنسي محاولة في نفس

الوقت إضفاء لمسة ومسحة جديدة باستبدال مصطلح الحوارية بالتناص، وجاء بعدها جرار جنيت ووظف ما سماه المتعاليات النصية، وإن كنا اخترنا في عرضنا هذا هؤلاء الثلاثة فمن جهة لأنهم أقطاب وأعلام بارزون في النقد الغربي، إلا أن هذا لا يلغي وجود العديد من المنظرين الأفذاذ الذين لهم ثقل معرفي كبير وساهموا في تطوير استعمال هذا المصطلح. فلكل دوافعه وخلفياته ومرجعياته التي رسم من خلالها توجهه في تقديم تحديد معين للتناص ونشير مثلا إلى ريفاتير ورولان بارت، وتودوروف، ونتالي بيقاي وديكرو وآخرون كثر، يضيق مقامنا لعرض اجتهاداتهم، لهذا اكتفينا بهذه المدونة فقط.

أما الغاية الثانية فترمي إلى مساءلة تمس جوهر الدراسات النقدية العربية، التي سنرى من خلال الإشارة إلى بعض منها مدى استيعابها لما في استعمالات هذا المصطلح من تباين، خاصة وأن الكثير الكثير من هذه الكتب تشتغل عليه، وعددها كبير جدا ملأ خزانة النقد الأدبي، وربما فاق هذا الإنتاج النقدي ما يعرفه الإنتاج الغربي في هذا المجال، لكن أي مفاهيم التناص كانت توظف؟ هل اعتمدت على المتعاليات النصية مشيرة وهي تعتي التناص كما فعل سعيد يقطين في كتابه انفتاح الخطاب الروائي، أم أنها تغاضت عن خلفيات ومرجعيات وأصول هذا المصطلح وأخذت من هنا وهناك دون علم بمسارت وتطورات هذا المفهوم في الساحة الغربية؟

1*ميخائيل باختين ومفهوم الحوارية

حين نقرأ باختين نغوص في متاهات ملتوية لا نكاد نعرف سبيل الخروج منها، لأننا نحس أنه يقول كل شيء عن النص، بنيته وحدوده وظائفه وسياقاته، مشاكله وتعتيماته، يلمس كل الخيوط التي أصبحت الدراسات النقدية الغربية الأكثر حداثة تتناولها، ربما يعود ذلك لأسباب عديدة، الظروف التي كانت تحيط به، تشبعه بالعديد من المجالات المعرفية: من الموسيقى إلى الأدب إلى الفلسفة، علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ، كان يحمل من كل هذه الحقول وجهة نظر خاصة ميزته وجعلته يتفنن في إدراك ما في النص من سحر يحتاج إلى ساحر لا يملك عصا موسى فقط من أجل أن يلفت الأنظار ويبطل سحر الساحرين، ولكن يحتاج إلى دليل ينطلق من الذات ليخرج لمعانقة الآخرين، فيقوده لفضح كل المسكوت في الثقافة الغربية التي كانت تتخبط في أزمات معرفية وإنسانية كبيرة، جراء تمسكها بالعقلانية الفجة التي ولدت فكرة الأنانة كعمود فقري لمبدأ الهوية.

في ظل هذا المسار وجد باختين الحل بعودته إلى الرومانسية وتشديده على مبدأ الغيرية، هذا المبدأ المهم الذي من خلاله يمكننا أن نكتشف السر الذي جعل مفهوم التناص أو الحوارية باصطلاح باختين يعرف الصدى المتجدد في الإنتاج الغربي والعربي على حد سواء.وما زلنا نسمع رنينه إلى اليوم، لأن هذا المُنَظِّر واللساني والفيلسوف اعتبر أن كلامنا ما هو إلا خطاب الآخر في لغة الآخر، وهذه الجملة فقط تلخص كل التحولات التي عاشها النقد الغربي المعاصر الذي أصبحنا نسمع داخل الأصوات العديدة التي تتحاور فيه صوتا ونبرة لباختين ترن بين الفينة والأخرى. لهذا سيأخذ باختين في عملنا هذا حصة الأسد، سنتوقف أولا عند مفهوم النص عنده ، والعلم الذي يقترحه من أجل دراسته، والبعد الحواري في النص مع تناول مفهومه للتعددية الصوتية ، لننتقل بعدها إلى كرستيفا وطريقة استلهامها لمفهوم الحوارية واختيارها لمصطلح التناص ونعرج بعدها على الناقد الفرنسي جرار جنيت لنكتشف المتعاليات النصية، وما يجمع هؤلاء أنهم اشتغلوا على النص في علاقاته المتنوعة مع باقي النصوص.

2*باختين ثقل معرفي وتنظيري:

يُجمع جل من كتب عن باختين، سواء من قدَّم لكتبه، أو من أخضع أعماله النقدية إلى الدراسة والتحليل، على العمق المنهجي الذي يمتاز به، عمق كان وليد التشبع بتيارات فكرية وفلسفية ولسانية متشعبة، مما يدل على ثقافته الواسعة واحتكاكه بما كان يشغل عصره من قضايا مختلفة. لهذا فالحديث عن السياقات العامة التي غلفت فكره والانطلاق منها يفتح للقارئ أفقا أوسع لفهم العمق التنظيري لهذا الناقد واللساني، الذي نصادف دوما أثناء قراءته تنوعا معرفيا ومفهوميا يصعب النفاذ إليه.

يقول عنه جون بيتارد وقد درس أعماله: "ليس فقط لأن ميخائيل باختين أول المنظرين الذين تكلموا عن التلفظ والملفوظ في فرنسا وخارجها أكثر من المهم، بل ولأنه أعاد تفكير التاريخ اللساني وأعاد تسطير وجهات نظر جديدة، لهذا هناك باختين القبلي وباختين البعدي فهو، ليس فقط منظرا للأدب العام والمقارن كما نعتقد، أو أدبيا مختصا في دوستويفسكي ورابليه، بل هو أيضا منظر للغة "(1).

يتميز باختين بوعي فلسفي ساعده على تَبَصر أهم القضايا المعرفية المطروحة في عصره، والتي شغلت العصور اللاحقة، ولكن من جهة أخرى اتسمت أطروحاته بالاتساع والعمق، ما كثف الدراسات التي خصصت له فنذكر: "تركة ميخائيل باختين"(2)، وهو كتاب ألفه مجموعة من المهتمين بطروحاته، بمناسبة مرور مئة سنة عن ولادته، وعشرين سنة من وفاته، قدموا دراسات جادة عرضوا فيها أهم الخلفيات المعرفية التي اتكأ عليها باختين في تنظيراته، واللافت للنظر في هذه الإنجاز أن كاتبة المقدمة كاترين دبرتو Catherine Depretto، الواردة في عنوان: "ميخائيل باختين اليوم"، بعد أن أشارت إلى أهمية المكانة التي يحتلها باختين في الدراسات النقدية اليوم، عرجت على جملة من الأعمال التي تناولته انطلاقا من فرنسا، مع ما كتبته كريستيفا وتودوروف، إلى روسيا التي ساهمت في إجلاء معالم هذا الرجل، حيث خُصصت مجلة كاملة لدراسة أعماله واسمها: "حوار، وكرنفال، وكرونتوب"، وتصدر أربعة أعداد منها في السنة، وحسب رأيها، لا يمكن أبدا حصر كل الدراسات التي تناولت باختين.

كما أثارت نقطة مهمة مست جوهر هذه الدراسات التي لم يستطع معظمها، بالرغم من كثرتها، أن تعرفنا تعريفا جيدا بهذا العالم، بل حتى أنها وصلت للقول: "فعلى العكس من ذلك، تشكل الظاهرة المحيرة الباختينية la Bakhtinologie، شاشة صلدة بين نصوصه، تحرق الكثير من المحطات في الوقت الذي كان لابد أن تضفي الوضوح عليها، أوصلنا هذا إلى التساؤل: هل قُرئ باختين حقيقة؟"(3)

فعلا تطرح الكاتبة سؤالا مهما، لأن الدراسات التي تكتب عن باختين، حسبها، أصبحت تزيده غموضا، مادام الذي يشتغل على ما ألفه الرجل، لا يعي في كثير من الأحيان أن كتابات باختين تلمس مجالات معرفية متنوعة، مثل: الفلسفة وعلم الجمال، والهرمنيوطيقا، واللسانيات والأدب، والسوسيولوجيا، لهذا بقيت صورة باختين ليومنا هذا ساحرة ومحيرة، زيادة على ذلك: "لم تعمق حقيقة أية أسئلة ضرورية مبثوثة في ثنايا بحثه، من مثل: من هو حقيقة؟ من أين أتى؟ هل يوجد عنده خيط رابط يجمع مختلف مراحل مساره، أو لا تعدو هذه المراحل أن تكون سلسلة من القطائع والتراجعات؟"(4).

إذا كان هذا الإشكال يطرح عندهم بهذه الطريقة، فعندنا سيُطرح بشكل أكثر حــدة، لأننــا لا نتعامــل مــع النصوص الأصلية، أي كما كُتبت في الروسية إنما نقرؤها منقولة إلى الفرنسية، أو نقرأ ترجمة الترجمة، حين تُنقل إلى العربية، فنقع في مشاكل لا حصر لها من المصطلحات إلى المفاهيم إلى السياقات المعرفية... وعليــه يصــبح عملنا الذي يتوخى حصر مقولة الحوارية عند باختين محفوفا بالمخاطر التي لا مناص من خوضها، ما دام بــاختين يعتبر كما قال عنه تودوروف في "المبدأ الحواري" : "أكبر المفكرين(5) السوفيات في مجال العلوم الإنسانية، وأكبر منظري الأدب في القرن العشرين"(6). وهاتان الميزتان متكاملتان ومتحدتان حسب تودوروف، وهما جديرتان بجعل ما قدمه هذا العالم محط الدراسة والاستثمار.

كما أن باختين، حسب تودوروف، هو منظر النص théoricien du texte، ولا يُقصد هنا الــنص الأدبــي فقط، بل مختلف النصوص، وعليه ليعمق باختين من تنظيره اعتمد ميادين مختلفة مما جعل الــدخول إلــى الفكــر الباختيني، الثري والمعقد والمذهل صعبا جدا، وتعود هذه الصعوبة إلى نقاط كثيرة ومتعددة.(7)

على الرغم من وجود بعض الثغرات في تنظيراته فإنها تبقى كتابات رائدة انسحبت على مجــالات مختلفــة توزعت بين مقالات كان يكتبها بين الفينة والأخرى إلى دراسات أجملها في كتب بعينها، مثل مؤلفــه "الماركســية وفلسفة اللغة"، و"مشكل شعرية دوستويفسكي"، و"مؤلف فرانسوا رابليه"، وهناك دراسات جمعت في مؤلفات محددة، فنجد "جمالية الابداع اللفظي" و"علم الجمال ونظرية الرواية"، إضافة إلى بعض مقالاته التي ضمها تودوروف فــي نهاية مؤلفه: "المبدأ الحواري"، وفي خضم هذا الزخم المعرفي، التنظيري والتطبيقي سنعرض تنظيره الرائد حــول ماهية النص الذي لا يتحدد إلا ببعده الحواري، أو كما قال: "ميزة النص كامنة في الاستثمار الواعي والنسقي للبنى الحوارية للسان، وللتعدد الصوتيla plurivocité وللكلمة، وللحضور المتزامن/الآنــي simultanée فــي نفــس الملفوظ، لصوتي ولصوت الآخر"(8).

3*الحوارية في التنظير الباختيني:

أ*الحوارية والطابع الاجتماعي:

أهم ما يميز باختين أنه رجل يحتفي بالتاريخ وبالتطور وبالعلاقات الاجتماعية، لهذا لا يمكننا أن نخوض في فهمه للنص ما لم نقرأه في ضوء ما يقدمه من أوليات أساسية، لأنه لم يول الظاهرة النصية اهتماما إلا لأنها جوهر التعاملات الإنسانية، فأين "لا يوجد نص لا يوجد مجال للتفكير ولا للدراسة" كما يقولها دائما، وكما نعلــم لا يحيــا الإنسان في عالم منغلق على نفسه، إنما يعيش في ظل جماعة معينة تقاسمه همومه ومشاغله ومشاكله، أو بالأحرى هو بحاجة تواصلية ومنفعية مع الآخر.

بتعبير آخر ليس الإنسان سوى كائن اجتماعي، يتلقى زاده المعرفي واللساني الأول في ظل حيز يشغله مــن هم في دائرته، إذا لا مناص من أن يتعلم هذا الكائن أبجديات وجوده التي سيتفق أو يختلف معها، تحت وصاية هذه الجماعة، لذا لم يعترف باختين بالبعد النفسي للعلامة كما جاء بها دي سوسير إنما ركز على طابعهــا الاجتمــاعي وكانت هذه أول شرارة اختلاف بينه وبين الفكر اللساني الذي سبقه، فإضفاء البعد الاجتماعي على الــدليل اللســاني يلغي كونه فعلا فرديا ذاتيا وهو الأساس الذي قامت عليه الدراسات اللســانية والأســلوبية النابعــة مــن الــدرس السوسيري، فالكلام حسب باختين وإن كان منبع : "التحولات اللسانية، فهو ليس فعلا فرديــا، الحقيقــة أنــه فــي

الكلمة/اللغة تغوص كل النغمات accent الاجتماعية المتعارضة" (9) لأن "كل متكلم إلا ويحمل أفقا اجتماعيا معينا يعينه على اختيار الكلمات المناسبة"(10).

وبما أن المتكلم هذا منتج نصوص، فلا مناص من أن إنتاجها سيكون مقيدا بالآخر الذي سيتلقاها في ظروف معينة، وهنا ندخل إلى أساسية مهمة تقودنا مباشرة في مفهوم الحوارية الذي يرسيه باختين منطلقا من حتمية لغوية ترتبط بكل إنتاج نصي، إذ يقول: "كل تواصل، كل تبادل لفظي، إلا ويتحقق في شكل تبادل ملفوظات، أي في بعد حواري"(11)، فكل ملفوظ سواء كان خطابا أو محاضرة... يتعلق بمستمع، بفهمه وبجوابه، والمتكلم يكون واعيا بالبعد الحواري لخطابه، لأنه لا يضع المستمع كشيء ثابت، لا استجابة له، بل على العكس يعلم أن أمامه مستمع حي، فما يصدره هذا الأخير من حركات في عينيه مثلا، يعتبرها المتكلم بمثابة رد عما يقول، وبالتالي هناك حوارية تتم بينهما، لأن هذا التبادل فيه فهم، وأخذ ورد، و فيه أيضا توظيف لخطابات أخرى نستدعيها من أجل أن تلتحم بخطابات الآخرين.

قد يقول قائل قد ينتج المتكلم نصوصا لا يوجهها لأحد، كأن يتكلم إلى نفسه أو يكتب مذكرات لا يقرأها إلا هو، فأين يكمن الطابع الحواري هنا؟ الحقيقة أن الجميع ينتج مثل هذه الخطابات ولكن ونحن نقرأ مذكراتنا مثلا في سياقات أخرى ألا نتلقها بطريقة مختلفة، أي أننا بمجرد أن نفارق هذه النصوص ثم نعود إليها فنحن نحاورها أثناء القراءة، لهذا يجزم باختين أنه حتى: "الخطابات الأكثر حميمية، لها حظها الحواري، لأنها تعبر عبر تقييم مستمع افتراضي... حتى وإن لم يظهر بشكل واضح في ذهن المتكلم" (12).

يؤكد باختين في كل ما سبق على الطابع الاجتماعي لكل خطاب، لهذا كان التوجه الحواري سمة تطبع الملفوظ، فكل خطاب حسب باختين موجه نحو أحد قادر على فهمه، وتقديم إجابة حقيقية أو افتراضية، وهذا التوجه نحو الآخر يقود حتما إلى الأخذ بعين الاعتبار العلاقة الاجتماعية والهرمية الموجودة بين المتكلمين، كل هذا يؤثر على شكل النص إضافة طبعا للوضعية المتلفظ فيها، والسياق الاجتماعي للنص، فالتوجه الاجتماعي للملفوظ نجده في أي ملفوظ كان: "لأنه أحد القوى الحية والبناءة، التي في نفس الوقت الذي تُنظم فيه سياق الملفوظ ووضعيته، تعمل على تحديد شكله الأسلوبي وبنيته" (13).

لتعميق فكرة العلاقة الحوارية القائمة على البعد الاجتماعي يؤكد باختين على أن هذه العلاقة لا تقوم على نظام عقلاني ذي ترتيب منطقي أو لساني: "فحين لا نجد كلمات أو لغة لا يمكننا التحدث عن علاقة حوارية، لأن هذه الأخيرة لا تكون بين أشياء أو بين المفاهيم المنطقية، فالعلاقة الحوارية تتطلب لسانا، لكننا لا نجد هذه العلاقة في نظام اللسان أو في عناصره"(14)، إنما بين الأشكال المكونة للخطاب (سواء الخطاب المونولوجي أو الحواري).فالعلاقة الحوارية هي علاقة تتم بين ملفوظات داخل التبادل اللفظي، فمهما كان الملفوظان، إذا قابلنا بينهما على صعيد المعنى سيُكَونان علاقة حوارية، لهذا هناك فرق بين التحليل اللساني والتحليل الحواري، فالتحليل اللساني لا يهتم إلا بالمادة Le matériau (15) ووسائل التبادل اللفظي، ولا يهتم بالتبادل اللفظي نفسه، ولا بالملفوظ كوجود، ولا بالعلاقة الحوارية الموجودة بين الملفوظات، ولا بأشكال التبادل اللفظي وأنواع الخطاب، فاللسانيات لا تدرس إلا العلاقة الموجودة بين العناصر داخل نظام اللغة ولا تدرس العلاقة الموجودة بين الملفوظات والواقع والملفوظات والمتكلم التي تخلق فيما بينها علاقات حوارية.

فالبعد اللساني لا يمكنه أن يهتم بهذه العلاقة، لأنها تنبع من أشكال رؤية العالم أو وجهة النظر أو الصوت الاجتماعي ومن داخل هاته الأشكال يمكننا أن نبحث عن العلاقة الحوارية لا داخل النظام اللساني، لأن الفنان يخضع نظام اللسان لتحويل عندما يريد إنتاج ملفوظ ما، فهذا التحويل الذي يحققه الفنان هو ما يجعل عمله يتجاوز الحدود اللسانية.

قد يخال القارئ أن باختين ربط البعد الحواري وما يصنعه من علاقات باللغة على وجه عام ولم يخصص للغة الأدبية مجالا، لكن على العكس، فلهذا المنظر العديد من المؤلفات التي تبين اهتمامه بالرواية، التي تفنن في ضبط أسلوبها وبعدها الحواري وما فيها من تعدد صوتي وهو ما سنكتشفه الآن.

ب* الحوارية في النصوص الروائية:

حاول باختين، من خلال معظم ما كتب، الكشف عن أصول الرواية، مبينا في الآن نفسه موقعها من الأجناس التعبيرية الأخرى، معتبرا أنها سيدة الأجناس، والجنس المستقبلي بامتياز القادر على التعبير عن تطورات الإنسان الأوروبي المعاصر ومصاحبة انشغالاته، فبيّن في مدارات بحثه العجز الذي يعتري إقامة نظرية للرواية تضبط حدودها والإمكانيات الإبداعية فيها، لهذا كان عمله منصبا على البحث في أسلوبية الرواية منتقدا الدراسات الأسلوبية التقليدية التي كان الشعر محور تطبيقاتها، أما من كان يحاول دراسة الرواية فيخضعها لما وصلت إليه الدراسات الأسلوبية الشعرية من نتائج .

وهذا خطأ جسيم في اعتقاد باختين لأن مثل تلك الدراسات لم: "تعرف حياة الكلمات في المجتمع خارج معمل الفنان، خارج الفضاءات الواسعة للساحات العمومية، والشوارع والمدن... والزمر الاجتماعية"(16). لهذا انتقد باختين المنهج الأسلوبي التقليدي الذي اعتمد على ما قدمه الشكلانيون الروس، ولسانيات سوسير، وبين الثغرات التي كانت تتركها الدراسات الأسلوبية في تعاملها مع النثر الأدبي، إذ كانت تطبق عليه مقاييسها الأسلوبية المستمدة من نصوص شعرية، مما جعلها تقف عند الأوصاف اللسانية للغة الروائية من دون الاهتمام بالوحدة الأسلوبية للرواية ككل.

من هنا انطلق باختين ناقدا وباحثا في أصول الرواية فوصل وهو ينقب في تاريخها لاكتشاف مهم جدا وهو أنها ظهرت في عالم متعدد لسانيا وبوليفوني، لهذا كان: "أسلوب الرواية هو تجميع للأساليب، لغة الرواية هي نظام من اللغات، وكل عنصر من عناصر لغة الرواية محدد مباشرة بالوحدة الأسلوبية التي يدخل فيها بشكل مباشر: خطاب الشخصية المتفردة أسلوبيا، الحكي العائلي للسارد، الرسائل، ... فالرواية هي التنوع الاجتماعي للغات... هي تنوع أدبي منظم"(17)

هذا التنوع المنظم يجعل العديد من النصوص تتحاور داخل جسد الرواية، لأنها نص تمتزج فيه العديد من الأصوات والخطابات المتحاورة باستمرار والمخترقة بأقوال الآخرين مما يجعل الرواية تظهر بشكل معقد تعجز مختلف التنظيرات التوحد من أجل دراستها، مما دفع باختين إلى الاقرار باستحالة نسج نظرية للرواية، وإن أردنا دراستها فعلينا التزود بأدوات تحليلية تستقي أسسها من أسلوبية سوسيولوجية، لأن الرواية مليئة بالخطاب الاجتماعي الذي يجب البحث في سياقه الملموس: "المعدل لمجموع بنيته الأسلوبية "وشكله" و"محتواه"، فضلا عن أنه لا يعدله

من الخارج وإنما من الداخل، ذلك لأن الحوار الاجتماعي يرن داخل الخطاب نفسه، وداخل كل عناصره، سواء تلك التي تخص "المحتوى" أو تخص "الشكل"(18)

فالعمل المنوط بـالشعرية السوسيولوجية يكون مكتملا، إذا استطعنا أن نشرح كل لحظات الشكل كتعبير فعال عن التطور باتجاهيه: اتجاه نحو المُسْتَقْبِل، واتجاه نحو موضوع الملفوظ، والشعرية التي ينادي بها باختين هنا جاءت كردة فعل على الجمالية الشكلية التي كانت منتشرة في وقته، والتي لم تكن تعرف الشكل الفني إلا كشكل لمادة، وهذا ما جعلها تهمل المحتوى(19)، الذي لن تستطيع الدراسة اللسانية الوصول إليه.

فاقترح باختين مجالا جديدا سماه الدراسة عبر اللسانية التي تهرب من المزالق المنهجية التي سقطت فيها اللسانيات، كما يمكنها أن تبحر في عالم النص الروائي بمحتواه وسياقه الاجتماعي المغلف للتعدد اللغوي الموجود في الرواية، ولكن الوصول إليه لا يكون بإضاءة خارجة عن النص، بل انطلاقا من السياق الداخلي للنص. يقول باختين: "يخضع التعدد اللغوي، داخل الرواية، لتشييد أدبي، وتنظيم للأصوات الاجتماعية والتاريخية التي تعمر اللغة (جميع كلماتها، وجميع أشكالها)، وتعطيها دلالتها الملموسة والمحددة، في نسق أسلوبي منسجم، مترجمة الوضعية الاجتماعية _الإيديولوجية المميزة للكاتب، داخل التعدد اللغوي لعصره" (20)

إذن، التعدد اللغوي والتداخل الخطابي الذي نجده في الرواية يترجم: "الموقف الاجتماعي للمؤلف في داخل التعدد اللغوي لعصره".(21) فالرواية ليست كتابة أدبية متجانسة. لهذا لا بد أن تلتحم العديد من البنى من أجل صوغها في بناء جمالي يتماشى مع طبيعتها التكوينية، التي تجعلها خطابا مفتوحا على خطابات عديدة تتآلف داخل لحمة ما نسميه رواية تلف خطابات تتحاور باستمرار في خضمها من أجل أن تخلق كليتها المتناغمة.

ما لاحظناه من خلال استنادنا لبعض مقولات باختين في حصر مفهومه حول الحوارية، أن هذه الأخيرة ميزة ترتبط بما ينتجه الإنسان من خطابات، ولا تتوقف على اللسان كنظام مجرد، لأننا لا نتعامل مع النظام اللساني ولكن مع ما يخلقه الإنسان انطلاقا من هذا النظام لينتج نصا يستحضر فيه ذاته والآخر معا، أو كما يقول تودوروف في سياق ضبطه لمفهوم الحوارية عند باختين: "إن الأسلوب هو الرجل، لكن يمكننا القول إن الأسلوب هو على الأقل رجلان، أو بالضبط الرجل والطبقة الاجتماعية كما تتجسد من خلال المستمع الذي يساهم بفاعلية في الكلام الداخلي والخارجي مع المتكلم الأول"(22).

وإن اعتبر الكثيرون أن هناك لبسا كبيرا في ضبط مفهوم مستقر للحوارية، فهذا واقع يجب الإشارة إليه لأن باختين شيد صرحه التنظيري على مراحل متتابعة، لهذا تتطلب قراءته دياكرونيا أي على أساس زمني، كما يجب التفريق بين الحوارية والبوليفونية عنده، لأن الثانية ليست ميزة تطبع كلام الإنسان ومختلف الخطابات التي ينتجها، إنما ترتبط بدرجة إبداعية الوصول إلى دمج صوتين في صوت واحد.

4* كرستيفا ومفهوم التناص

يعود الفضل، طبعا، للباحثة البلغارية جوليا كرستيفا التي جاءت إلى فرنسا وسط موجة نقدية عارمة، فوجدت فيها مكانا بارزا لخلفياتها ومرجعياتها المتينة المستقاة من مجالات معرفية متنوعة: علم النفس التحليلي والفلسفة والرياضيات والأدب الفرنسي واللغات التي كانت تتقنها، فنقلت لفرنسا إنتاجات باختين الذي كان مغمورا أو لنقل لم يكن معروفا أصلا في تلك الفترة، فكان لها قصب السبق في عرض نظريته واجتهاداته حول النص، لأنه مثل لها

نقلة نوعية تجاوزت ما كانت تطرحه المدرسة الشكلانية الروسية، فباختين كما تقول: "من بين الأوائل الذين عوضوا أو استبدلوا التقطيع الساكن للنصوص بنموذج لا تكون فيه البنية الأدبية إلا في علاقتها ببنية أخرى وهذه الدينامية ليست ممكنة إلا في ظل مفهوم تتحاور فيه عدة كتابات: للكاتب أو المستقبل، أو السياق الثقافي الحاضر أو الماضي.."(23)

حسب كرستيفا" يموضع باختين النص في التاريخ والمجتمع، اللذين يعدهما هما أيضا نصا يقرأه المؤلف ويستلهمهما لإعادة كتابتهما من جديد" فالتاريخ والأخلاق la moral يكتبان ويقرآن داخل البنية الداخلية infrastructure للنصوص

تحدد كرستيفا ثلاثة أبعاد للفضاء espace النصي: موضوع الكتابة،المرسل إليه والنصوص الخارجية (عناصر ثلاثة متحاورة) وتصل للقول" أن النص هو تقاطع نصوص حيث نقرأ على الأقل نصا فيها وهو ما يتفق مع ماجاء به باختين أن كل نص هو فسيفساء من الإستشهادات، كل نص يمتص ويحول نصوص أخرى وهنا تقترح كرستيفا (24) مصطلح التناص عوض l'intersubjectivité التي أطلقها باختين للتعبير أنها أسبق من الذاتية، فبظهور الشخص الثاني يبدأ المجتمع ويبدأ التعالق والتحاور بينهما.لهذا فميزة اللغة أنها intersubjective

ترى كرستيفا بعد عرضها لنظرية باختين ومقارنتها بما قدمه الشكلانيون الروس مثل اخنباوم ،"أنه يمكننا أن نجد اليوم العلاقات الحوارية في مستويات عديدة من اللغة: في الثنائية الملتحمة بين الكلام واللغة dyade combinatoire langue parole ،في نظام اللسان(التواصل الجماعي،التواصل المونولوجي، حتى في نظام القيم الذي يتجلى في الحوار مع الآخر) (25).

بالنسبة لباختين الذي جاء من روسيا الثائرة المنشغلة بالمشاكل الاجتماعية، الحوار ليس فقط اللغة التي تتحملها الذات ، إنما هي كتابة نقرأ فيها الآخر، ومنه فحوارية باختين ترى الكتابة من جهة ذاتية ومن جهة أخرى تواصلية، ولنقل بطريقة أفضل بمثابة تناص intertextualité وانطلاقا من الحوارية يصبح الحديث بدل "شخص- ذات الكتابة" عن "l'ambivalence de écriture (26).

يقتضي مفهوم التباين L'ambivalence التحام التاريخ والمجتمع داخل النص، والنص داخل التاريخ، فهما بالنسبة للكاتب الشيء نفسه، لهذا لا يمكن للسانيات أن تكون مجالا تحليليا للنص، ما جعل باختين يجد له فضاء عبر لساني يمكن أن يدرس مكوناته المختلفة.

استلهمت كرستيفا من باختين مفهومه للحوارية، لترى أن التحليل النصي لا يتم إلا في ضوء تناصه، فالنص يعيد توزيع اللغة، بل هو حقل إعادة هذا التوزيع، يرمي التحليل التناصي الذي تقترحه كرستيفا البحث في الوظيفة التي تربط بنية نصية أدبية ببنى أخرى وهو ما تسميه الايديولوجيم، وبما أن النص عندها هو تقاطع ملفوظات عديدة يلتقي فيها المؤلف والقراء، فهو إنتاجية لأنه لا يتوقف عن إعمال Travailler اللسان.

5 جرار جنيت والمتعاليات النصية:

حلق جرار جنيت في مساراته السردية بعيدا، فاستفاد مما كان مطروحا في الساحة النقدية الغربية خاصة أنه اعتنق المنهج البنيوي وأسس الدرس السردي في تقصيه لمكونات الخطاب الروائي، التي وصلت إلى النقد العربي عبر الترجمات، ومن خلال زيارة بعض الباحثين العرب إلى فرنسا أين انتهلوا من فيض ما كان يقدمه جنيت من

دروس مهمة مست أنواعا من الخطابات الأدبية وخاصة منها الرواية، التي اهتم بها جنيت اهتماما بارزا تجلى في مختلف الدراسات والمقالات التي كان ينشرها.

فبحث في كتابه صور 3 figures في مكونات الخطاب الروائي، فكانت دراسته بنيوية سردية ستاتيكية، أي أنها ركزت على مجمل البنى القارة التي تتكرر في كل نص روائي، انطلاقا من تحليله لرواية مارسال بروست بحثا عن الزمن الضائع، واستنتج من خلالها ثلاث بنى لا يمكن لنص روائي أن يتكون من دونها وهي الزمن والصيغة والصوت، ولاقت نظرية جنيت هذه رواجا كبيرا جدا في الأوساط النقدية الغربية والعربية على وجه الخصوص فعكف عدد غير قليل من الباحثين العرب على تطبيق نتائجها على نصوص روائية عديدة مثلما فعل سعيد يقطين في كتابه تحليل الخطاب الروائي، ثم غدت الرسائل الجامعية تحبذ تطبيق منهج جنيت لما فيه من جانب تقني ربما أدى إلى قتل جمالية النص الروائي الذي أصبح لا يدرس إلا انطلاقا من هذه البنى القارة في كل نص.

إلا أن تطور البحث في النقد الغربي، جعل جنيت يركب موجة جديدة تفتح من خلالها على جوانب ومكونات أخرى أكثر أهمية يمكن أن تكون أساسية في أي تكوين نصي، وهي لا تتعلق بمجمل العلاقات التي تقام بين وحدات النص الداخلية، مما جعل دراسته تتسم بنوع من الدينامية، فانتقل بذلك إلى مجال أرحب وكتب كتابه "مدخل إلى جامع النص"، وكان هذا في الثمانينيات أين كانت مشكلة أجناس الخطاب أو أنواعه تطرح بشدة في فرنسا، لذا أبرز جنيت في افتتاحيته الخطوة الجديدة التي يجب النظر من خلالها إلى النص فقال: "ليس النص هو موضوع الشعرية بل جامع النص أي مجموع الخصائص العامة أو المتعالية التي ينتمي إليها كل نص على حدة ونذكر من بين هذه الأنواع: أصناف الخطابات، وصيغ التعبير، والأجناس الأدبية(27).

الخروج من بنية النص المنغلقة إلى بحث تصنيفي يرمي إلى حفر التاريخ الأجناسي من أجل الوصول إلى شعرية تستطيع أن تجعل مختلف أنواع الخطابات مصنفة تصنيفا يرتبط بأساسيات معينة، درس مهم جدا وهو بادرة الانفتاح النصي، لأن البحث في جنس النص يساعدنا على فهمه، أي يؤهلنا لاختيار الأدوات والمرجعيات المناسبة التي نستحضرها ونحن نقرأ نصا معينا، لأن قراءة نص شعري تختلف عن قراءة مذكرات فيها شعر، أو رواية فيها مقاطع شعرية، وبالتالي كان خروج جنيت من النص ومكوناته إلى جامع النص بادرة انفتاحه على عناصر أخرى أكثر أهمية نلتقي بها لاحقا في حديثه عن المتعاليات النصية التي عد جامع النص أحد مكوناتها.

إذا تبصرنا مقولة أجناس الخطاب لرأينا مدى أهميتها لمقاربة النصوص، فحين نقول: إن الأدب خطاب، فهذا يحتم علينا النظر إليه في تداخله الخطابي، أي أن العمل الأدبي لن يكون له وجود إلا في اشتراكه مع نصوص وأجناس مختلفة، وهو ما يفرض علينا إعادة التفكير في هيكل الدراسة الأدبية.(28) لأن طبيعة النصوص الأدبية تختلف عن نصوص الحياة اليومية والنصوص الأخرى، ولأن اللسانيات التقليدية تبقى في ذاتها عاجزة عن مقاربة الخطاب في كل أبعاده، مما قاد تحليل الخطاب إلى التطور عبر ما يمليه الدرس التداولي الحديث، أو ما يعرف "بنظرية التلفظ"(29) ، كمجال لا يمكن أن نقر بتحديد موحد له، إلا أن المنظرين له يؤكدون على عجز التحليل اللساني أمام أجناس الخطاب المختلفة، فـ "أي قارئ أو مستمع متمهل يمكنه أن يدرك أن هوية الخطاب ليست مُشْكِلة ألفاظ أو قضايا، ولكن مُشْكِلة انسجام شامل يدخل فيه العديد من المستويات النصية، ولكن التحليلات المقترحة له لا تأخذ هذا بعين الاعتبار."(30)

لذا نلاحظ أن هناك شبه اتفاق في التنظيرات المعاصرة على ضرورة تجاوز الدرس اللساني من أجل رؤية الخطاب في كليته.

لا ننسى أيضا أن نشير إلى أن مقولة أجناس الخطاب حظيت باهتمام باختين، رغم أن جنيت لم يركز عل ما قدمه هذا الأخير، وهو نوع من الإلغاء، في حين أن الكثير من النقاد الغربيين أشادوا باهتمام باختين المبكر بهذه المقولة، أين تطرق في كتابه: "جمالية الإبداع اللفظي"، إلى مكانتها،حيث قال: "نحن نتكلم بملفوظات لا بقضايا معزولة، ولا أيضا بكلمات معزولة،... فأن نتعلم الكلام، يعني أن نتعلم بناء ملفوظات، كما أن أجناس الخطاب تنظم كلامنا، مثلما تنظم الأشكال النحوية تركيباتنا"(31).

فالتواصلات الإنسانية مرهونة بجنس الخطاب المستعمل فيه، الذي صاحب استعمالات الإنسان التواصلية المختلفة مثلما رافقته الأشكال والنظم النحوية، وعليه يستحيل على أي إنسان كان التواصل من دون أجناس الخطاب، لهذا يعتبر باختين أن حياتنا اليومية مليئة باستعمالات لخطابات شتى، ويبدع الفرد فيها كما يشاء وفق السياق والوضعية التي يكون فيها، ومنه فحين نقارن بين أشكال اللغة التي تبنى بها ملفوظاتنا نتقيد بها لأنها معطاة، أما استعمالاتنا للخطابات فهي إبداع، لا يكون حرا بل يتقيد بأشكال اللغة التي نبدع من خلالها(32).

لهذا كانت أجناس الخطاب متنوعة بين الخطاب اليومي، والحكي العائلي، والرسالة، والبحث العلمي، والسياسي... إلا أن هذا التنوع لم يطرح في المجال اللساني، وهذا يعود إلى الطبيعة المتنافرة للخطابات المذكورة آنفا، وتشكلاتها، فالخطاب لا يتجسد إلا داخل التشكلات الاجتماعية، كما يرى باختين، لهذا فالوحدة التي يجب أن تدرس ليست الخطاب بل الفضاء الذي حصل فيه التبادل الخطابي، فالخطابات تتشكل أصلا بطريقة منتظمة داخل التداخل الخطابي، فلا يمكن أن يعرف الخطاب إلا داخل التداخل الخطابي الذي حصل فيه. وهذا ما قاله جنيت بطريقته الخاصة، حين اعتبر أن النص ليس موضوع الشعرية إنما جامع النص.

ومن خلال دراسة جنيت لأجناس الخطابات الأدبية وإبراز أهميتها في فهم النص بعودته إلى الإرث الأرسطي وكل ما جاء في الثقافة الغربية، يبدي أن هذا المنظر بدأ يتلمس خيوطا أخرى تساهم في نسج الصرح النصي، مثل المتعاليات النصية Transandances التي حددها قائلا :"التعالي النصي للنص، هو كل ما يجعل النص في علاقة صريحة أو ضمنية مع نصوص أخرى حينما تتجاور وتضم جامع النص"(33). يضعنا هذا التعريف أمام اعتبارات عديدة خاصة حين نقرا هذه العبارة التي يجزم فيها أن كل "النصوص تستدعي أثناء قراءتها نصوصا أخرى ، لذلك كل الأعمال متعلقة نصيا ولكن بدرجات متفاوتة" (34).

بالرغم من أن هذا القول ينطبق تماما مع ما جاء به باختين إلا أننا نلاحظ أن جنيت يشير إلى كرستيفا، في سياق حديثه عن أول نوع من أنواع المتعاليات النصية يقول: "هناك خمسة نماذج من العلاقات للمتعاليات النصية أولها ما عرضته قبل سنوات كرستيفا تحت اسم التناص، والذي أحدده من جهتي بكونه علاقة حضور متبادل بين نصين أو أكثر... بمعنى آخر حضور نص في آخر في شكله الأكثر تضمينا والأكثر خطية وهو ما يسميه الاستشهاد،(بين مزدوجين،بدون أو مع المرجع)، في شكله الأقل تصريحا والأقل تقنينا، وهو السرقة، وهو اقتراض غير مصرح به ولكنه خطي، في شكل أقل تصريحا وأقل خطية وهو الإيحاء" (35).

نلمس من خلال هذا التحديد أن جنيت أشار في لمسة خفيفة إلى كرستيفا التي اقترض منها مصطلح التناص وليس مفهومه، لأننا نلاحظ جليا من خلال هذا القول أنه لم يفصل في عرض طريقة تحديد كرستيفا له، بل أشار فقط إلى مصطلح التناص أما المفهوم الذي سيستعمله فقدمه بطريقة واضحة محددا ثلاثة أشكال له تتفاوت صراحتها وخطيتها من شكل إلى آخر. أما الإشارة إلى باختين فهي منعدمة تماما، حتى أننا لا نجد في ثبت المراجع مؤلفا واحدا له وظفه جنيت ناقدا أو مستلهما من باختين مفهوما معينا، وهذا الإلغاء الصريح والفاضح لا نجد له مبررا إلا أن جنيت لم يرد أن يخوض في مسألة هي بالنسبة له واضحة، النصوص تأخذ من بعضها، فوقف ليجلي أشكال هذا الأخذ والرد الذي يتم بينها. مستفيضا في طرح الثقافة الإنسانية وتراثها كنصوص تتعالق فيما بينها.

لهذا نجده في ثنايا هذا العمل يحدد باختصار أنواع المتعاليات النصية المختلفة ، ولكن يركز فقط على التعالق النصي Hypertextualité وهو النوع الرابع من المتعاليات النصية، إذ يقول: "أما النوع الرابع الذي هو محل هذه الدراسة هو التعالق النصي أي وجود نص سابقHypotexte ولاحق Hypertexte، وهو النص النابع من نص آخر"(36) ، ويخصص كل الكتاب لعرض طريقة تعلق نص لاحق بنص سابق متوقفا عند أنواع التحويلات التي تتم عند تعالق النصوص فيما بينها.

أما أنواع المتعاليات النصية الأخرى فأشار إليها دون التعمق في إبراز خصوصيتها، يقول مثلا:" النوع الثاني من أنواع المتعاليات النصية هو المناصParatextualité، العنوان والعناوين الفرعية، المقدمة، ويعتبر جزءا من النص. النوع الثالث هو الميتا نص Métatextualitéأي التعليق أو التفسير النصي بمعنى وهي ما يجمع نصا بآخر يتحدث عنه،بدون أن يذكره. النوع الخامس الأكثر تجريدا وهو جامع النص، وهو علاقة صامتة (37).

ولا ينفي جنيت في سياق عرضه للمتعاليات النصية وجود علاقات تواصلية متبادلة بين الأنواع الخمسة، ولكن يوضح أن التعالق النصي يعده من أقسام النص، أما باقي أنواع المتعاليات النصية فهي بمثابة موجه لنصية النص (38)، أي أن ما يجعل من نص ما نصا أن تكون له نصوص موازية كمناصات عدها بمثابة عتبات تقدم لنا نصا قبل ولوجه، كما أن التناص بأنواع لا يخلو منه نص من النصوص لذا يستحضر المؤلفون عادة على اختلاف مستوياتهم نصوصا يستعملونها إما استشهادا أو سرقة أو إيحاء، كما أن أي نص من هذه النصوص لا يعد كذلك ما لم ينتم إلى جنس خطابي ما، وما لم يفسر شيئا بداخله يكون بمثابة ميتاحكي.، أما التعالق النصي فهو موجه عالمي حسب جنيت لأنه لا وجود لنصوص لا تستدعي نصوصا أخرى عند قراءتها، لهذا: "فكل الأعمال هي متعالقة نصيا ولكن بدرجات متفاوتة"(39).

حسب جنيت هناك ثلاثة أنواع رسمية للتعالق النصي، وهي المحاكاة الساخرة Parodie، والتحريف Travestissement والمعارضة Pastiche (40). جعل كل المؤلف مخصصا لعرض أنواعها والتطورات التي أدخلتها الإنتاجات الأدبية وهي تتعالق فيما بينها على هذه الأنواع.

من منظورنا الخاص ونحن نقرأ إنتاج جنيت نلاحظ جيدا أن هذا الناقد وجد في حقبة زمنية ومكانية تعرف نشاطا نقديا متسارعا جدا وبخلفياته المتينة المستندة على الدرس البلاغي القديم حاول أن يلحق بهذا الركب الذي غذته كرستيفا وبارت وتودوروف وغريماص وسولير وكورتيس، وجون مييشال آدم وآخرون كثر، جعل بصمته في مجال التناص واضحة، حين تبصر أن هذا المصطلح أخذ مكانة كبيرة حاول أن يقدم ما هو أعمق منه فاختار أن

يجمع أجزاء النص المتحرك في قالب يفوق التناص فاختار المتعاليات النصية، وعنصرها الأكثر عمقا وهو التعالق النصي.

لكن السؤال الذي نطرحه لماذا هذا الفصل بين التناص والتعالق النصي والمتعاليات النصية؟ أليس التنـــاص والمتعاليات النصية تعالق مع حوارية باختين التي يريد جنيت هنا أن يطمس رنينها في نصه.؟

ما يبرر ما قام به جنيت هو انتماؤه النقدي، فحتى وإن خرج من الدراسة الستاتيكية للــنص إلـــى الدراســـة المتفتحة له، إلا أن الأدوات التي استحضرها كانت أدوات بلاغية، لا فلسفية مثل التي كانـــت تملكهـــا كرســـتيفا أو باختين المتشبعان بحقول معرفية عديدة.

فالنص من خلال ما عُرض هو الظاهرة المدروسة وهو أفق لفظي وغير لفظي، تتعلق وتتعانق فيـــه بنـــى كثيرة تجعل مجال دراسته واسعا جدا يسع أي اجتهاد تنظري رائد يحاول كشف خباياه، باختين لمس اللغة وانطلـــق من الدليل اللساني غائرا في مرجعيته الاجتماعية نافيا بعده النفسي المجرد الذي يبعده عن واقع استعماله، متوقفا عند الكلمة فالنص فأنواع الخطابات،مبرزا البعد الحواري الذي من خلاله نسمع صدى النصوص بعضها في بعض بشكل عام كل ملفوظ إلا ويدخل في علاقة حوارية مع ملفوظ آخر، مهما كان نوع الملفوظ، ومهما كانت أشكال حضـــور هذه الخطابات فيه.

جزم انطلقت منه كرستيفا لتشيد صرحها التنظيري منطلقة من خلفيات ومرجعيات مختلفة عن التي انطلـــق منها باختين الماركسي الروسي الذي وجد في حقبة ثورية متأزمة، أما هي ذات التبني البنيوي الفرويدي اللاكـــاني فكانت متشبعة بالتحليل النفسي أكثر من الاجتماعي، متأثرة بالفلسفة الفرنسية متعطشة لدخول مغامرة الـــنص بكـــل أدواتها الإجرائية، من أجل أن تواكب تيار النقد الجديد في فرنسا، الأرض التي وطأتها، وهي تريد أن تجد لها مكانا وسط الزخم المعرفي الذي كان ينبض فيها، وفعلا استطاعت أن تتحاور وأن تعرف قيمة ما يطرحه باختين الـــذي يركز على الغيرية، وهو لب ما تحتاجه من أجل أن يسمع صوتها الغريب في بلد الملائكة والشياطين.

ما يميز حوارية باختين عن كرستيفا وجنيت أنه استطاع أن يلمس الحوارية في كل أجزاء الروايـــات التـــي حللها، في الكلمة، وفي الحوار الذي عده الشكل الأكثر وضوحا للحوارية، حتى في المونولوج ولكن لم يسمه حوارية بل بوليفونية، لأن هذا الحوار الداخلي يستحضر بصوت المتكلم خطابات الآخرين، كما لمس الحوارية فـــي الفكـــرة المبثوثة في الرواية، وزمنها ومكانها فتحدث عن الكرونوتوب، في الشخصيات، وفي خطاباتها الهجينة أو المتخللـــة أو المؤسلبة لخطابات أخرى.

الهوامش :

1 Jean Peytard: Mikhaïl Bakhtine: Dialogisme et analyse de discours: petrand Lacoste parie 1995. p11.

2 Catherine Depretto et les autres; l 'heritage de Mikhail Bakhtine. Edition presses universities de Bordequx 1997.

ما جُمع في هذا الكتاب هو ما نظمته "حلقة الدراســات والبحــوث حــول الحضــارات civilisations الســلافية" CERCS بالمشاركة مع قسم اللغة والأدب الفرنسي"، أثناء اليوم الدراسي المنعقد في ماي 1995 ، جاء في هذا المؤلف تقديم أهم ما عُرض في هذا اليوم الدراسي حول مؤلفات باختين، الذي اختلفت فيه الدراسات لنجد أن بعض الأساتذة ركزوا: علــى مختلف أقطاب الإرث الباختيني أو التركة الباختينية وما فيها من حديث عن الثقافة الشعبية، والنــوع، والحواريــة، والــتلفظ، والرواية. أما ثلة أخرى فركزت على الجانب التاريخي والثقافي للعالم، من أجل إظهار بدقة الجانب الفلسفي المؤطر لعمله. مع عدم ترك مشاكل الاستقبال التي تشكل مظهرا جد مهم في الظاهرة الباختينية. ص15.

3 Ibid.,p10.

4 Ibid.,p10.

5 مفكر لأنه يطرح الأسئلة كما قال أحد أشهر مترجميه: G. Veret : ما يميز فكر باختين هو أنه يطرح قبــل كــل شيء أسئلة، وبهذا المعنى حسب S. Averintsev " فهو مفكر أكثر منه عالم يبحث عن إجابات." l 'heritage de Mikhail Bakhtine p11

6 Todorov Tzvetan : Mikhaïl Bakhtine: Le principe Dialogique. Suivi de Ecrit du cercle de Bakhtine. Edition du seul. 1981: p 7.

7 منها ما يمس الجانب التاريخي، ولا يُقصد هنا تاريخ كتابة مؤلفاته، ولكن يُقصد به تاريخ نشرها، فهناك عنصــران يميزان هذا التاريخ، الأول: أنه قبل خمس سنوات من نشر باختين لأول مؤلفاته، لم يلمح في الساحة النقدية ولو مؤلف واحــد باسمه إنما باسم صديقيه، وهذا الأمر لم يكن مطروحا سابقا، إلا سنة 1973 حيث بدأ السؤال يطرح ومفاده: هل باختين هو من كتب تلك المؤلفات؟

الثانية: أن باختين حين كان يكتب مؤلفاته لم تكن الكتابة لغرض النشر (إلا مؤلفه الخــاص بدوستويفســكي) فنصــه Râblait لم ير النور إلا بعد 25 سنة من كتابته، وباقي نصوصه نشرت بعد 1975 أي بعد وفاته. كما أن صديقيه اختفيا في الثلاثينات مما يبقي علامات استفهام كثيرة. *كما أن باختين نفسه يصرح أن هناك نوعا من اللانسجام داخل نصوصه النقدية. من جراء قبول بعض الأفكار وهو يكتب، وهنا لم يعبر عنها جيدا أي التعبير خانه. للمزيد من التوضيح أشار تودوروف إلــى هذا في كتابه المبدأ الحواري في المقدمة إضافة إلى ما قدمه جون بيتارد بالتفصيل حول هذه الإشكالية، وكما لا يخفى أغلــب مقدمات كتب باختين تم الإشارة فيها إلى هذا الإشكال.

8 Mikhaïl bakhtine: Esthétique et théorie du roman,; Traduit du russe par Daria Olivier, Edition Galimard,1978. p17.

9 Bakhtine; Marxisme et philosophie du langage, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les édition de minuit;1977.p13

10 Ibid; P15.

11 Bakhtine/ voloshinov: la structure de l'énoncé: in le principe dialogique. todorove p292.

12 Ibid.,p294.

13 Ibid.,p299.

14 Ibid.,p327.

[15] العودة إلى مقال أم السعد حياة: ميخائيل باختين وفلسفة الجمال (الموضوع الجمالي جوهر الرواية)،مجلـــة الرافـــد، العدد 165 ماي 2011،ص38 أين فصلنا الحديث عن مشكل المادة والشكل والمحتوى في العمل الفني انطلاقا مـــن كتابـــات باختين.

16 Mikhaïl Bakhtine: du discours romanesque: in Esthétique et théorie du roman p85:

17 Mikhaïl Bakhtine: du discours romanesque: p88

18 ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ص.60

19 Mikhaïl Bakhtine, Voloshinove: Le discours dans la vie, le discours dans le roman; P202

20 ميخائيل باختين : الخطاب الروائي: برادة: ص.60

21 Mikhaïl Bakhtine: du discours romanesque: in Esthétique et théorie du roman p103.

22 أنور المرتجي: ميخائيل باختين الناقد الحواري، مجموعة مقالات مترجمة،منشـــورات زاويـــة، 2009، الربـــاط، ص61.

23 Julia Kristiva: Recherche pour une sémanalyse(Extraits);Edition du Seuil.1969; p83.

24 Ibid ; p85.

25 Ibid; p87.

26 Ibid; p88.

27 جيرار جنيت:" مدخل لجامع النص ،ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العراق، دار توبقال المغرب. ص5.

28 Dominique Mangeuneau; Analyse du discours et l'étude de la littérature; in Analyse du discours et science humaines et sociales: Simone Bonnafous et Malika Temmar;EDS; collection: Les chemins du discours; Edition Ophrys, Paris 2007; p118.

29 يمكن العودة إلى مؤلف مانغينو التي تحدث فيه عن نظرية التلفظ :

Approche de l'énonciation en linguistique française, Embrayeurs, temps, discours rapporté, édition classique hachette, Paris,1981,

30 Dominique Maingueneau: Genèses du discours, édition Pierre Mardaga; Bruxelles,1984, P7.

31 Bakhtine .Esthétique de la création verbal; Le problème des genres du discours: Traduit du russe par Alfreda Aucouturter, Edition Galimard, 1984; P285.

32 Jean Michel Adam; Eléments de la linguistique textuelle.., p20.

33 Gérard genette: Palimpsestes. La littérature au second degré; Edition seuil Paris 1982 p7.

34 Ibid; p16.

35 Ibid; p8.

36Ibid; p13.

37 Ibid, p 12

38 Ibid, P15.

39 Ibid, p16.

40 Ibid ,p17